

## ٣ - طرائف من العصر المملوكي :

## ابن الوردي والخمبول

للأستاذ محمود رزق سليم

—

ما هي العوامل التي دفعت ابن الوردي دفعا إلى أحضان الخمول فارتضاه لنفسه مذهباً ومعتقداً يجد فيه لذة وسعادة ؟ .. إن من كان في مثل فضله وعلمه ، من حقه على الدنيا أن تنبه شأنه ، وتسمى إليه ، وترفه عنه ، وتنوّه به ، وتيسر له . فهل أبلت الدنيا ابن الوردي آماله ، وأفسحت له سبيل المال والجاه ؟ كلا .. لقد روى أنه دخل الشام مرة ، وقره ياد في رثائه هيته ورداءة منظره ، فحضر مجلس القاضي نجم الدين بن مصري من جملة شهوده . فاستخفوا به وأجلسوه منهم مجلساً بعيداً : ثم أرادوا كتابة مبايعة ملك . فقال بعض الخائرين مشيراً إلى ابن الوردي « أعطوا المرء بكتب المبايعة » ، على سبيل الاستهزاء به . فقال ابن الوردي : « أكتبه لكم نظماً أم نثراً » فزاد استهزؤهم وقالوا « بل نظماً » فأبى لساعته نظماً طيفاً ذكر فيه اسم البائع والمشتري وحدود المبيع والشهود والتاريخ وما إلى ذلك . فأقبل القوم عليه معتذرين ، وقد عرفوا مكانته .

فنكران التزلة وضيق الرزق وقلة الجاه في مقدمة أسباب خوله .

وقد كان ابن الوردي - فضلا عن علمه وأدبه - ذا نفس أبية تربا به عن مواطن النذل ، وتناهى به عن مهادي الخضوع ولو حرم في سبيل ذلك ما يشاقق إليه من المجد : يقول :

وما جهلت نفسى المال وطيبها ولكن رأيت أن السلامة أطيب  
أسون الذى علمته عن مذلة فللمز في الدارين قد كنت أتمب  
ورحت خفيف الظل عن حمل منة لفتضح بالكر وهو عجب  
ويقول :

ولو شئت فقت الكل حرصاً وجرأة  
وأرضى بجمي وارثى وأعسب  
أكثر أموالا وأحمل ثقلها وأتركها للوارثين وأذهب

على الله رزق الوارثين وغيرهم

فيبدأ لشخص من سوى الله يطلب  
وقد كان ابن الوردي - إلى جانب ذلك كله - ذا أسرة ضخمة ، فقد ترك له أبوه جملة من الأشقاء ، ورزقه الله عدة من البنات . وهذه حالة تتطلب السعى الدائم ، والسكد والمجاهلة ، وبذل الحيلة . ولكن إياه نفسه لم يدع له وسيلة إلى الخضوع في سبيل الحصول على الرزق . فهو لا يحنى رأساً لرئيس ، ولا يقارف عملاً يقناني مع كرامته ، ولا يبذل ماء وجهه لقاء عرض الدنيا . يقول :

راكتساب النقي بنظام وثر فيه نقص لافاضل الشهور  
أنا لفظي در النحور ومثلي لم يبيع بالحطام در النحور  
إن فقر النفوس ذل وشين وغنى النفس عز كل فقير  
ولا يسمى إلى منصب القضاء برشوة - وقد كانت ذائمة في عصره - بل عف عن المنصب جملة لما رأى فيه رقا لنفس الحر . فيقول بمد أن طلق القضاء :

الرجم بمد المتق في الرق ثانياً فلا أم لي إن كان ذاك ولا أب  
ولقد كان ابن الوردي - كما ذكرنا - قاضياً على حلب نائباً في قضائها عن قاضي القضاة الزمكاني وكان ابن الوردي قد مدحه بقصيدة طلية لأنه استنقذ كنيصة من اليهود بحلب وجعلها مدرسة للحديث . فقال له :

علا لك ذكر ليس يشبه ذكر وأحرزت نقرأ ليس يدركه نقرأ  
ثم أرسل إليه ابن الزمكاني رسولا يطالعه بنقله إلى منبج . فلم يسترح إلى النقل ، وألح في العودة إلى حلب ، فلم يستمع له ابن الزمكاني . فانقلب ابن الوردي هاجياً شاكياً ، وكانت هذه الحادثة السبب المباشر في أنه كره المنصب وحياة الوظيفة ، ولجأ إلى الخمول يستمض بالاطمئنان إليه ما فقدته من جاه ورزق . قال مخاطباً ابن الزمكاني :

فنبدا قال الذى قاله رسولكم أوضح ما أعضاء  
وبان لي ما يقصد الدهر لي لكن رأيت الصبر ب أجلا  
وانقطع البحث وزال المرأ قدموا الناقص والأجهلا  
تالله لا باشرت من بعدها حكما ومن يرضى بهذا البلا  
فضل ابن الوردي من ذلك الحين حياة الخمول على حياة

ما طلبنا الخمول جهلا ولكن نذاك عن خبرة وعن تجريب  
لو أمنا الزحام فيه لكننا نشتهي لصاحب وحبيب . . .  
ويقال: ابن الوردي فيأسف على ما فات من الزمن في غير

الخمول ، كأنما فاته شيء من العز والمجاهدة فيقول :

أسنى ا كيف كنت أطلب عزاً بالولايات وهي عين الموهان  
كنت لا أعرف الخمول الجهلي ليتنى كنت خاملا من زمان

وقد أطلق له خموله حرية القول وفتح أمامه فجاء الحديث .  
ففخر بنفسه ليدل الناس على مفاخره ، ونقد مجتمعه ليبين لأفراده  
ضروب الفساد فيهم ، وجأر بالشكوى مما أصابه لئلا يجد فيهم  
سبباً . وما كان خموله إلا شكوى صامتة واحتجاجاً سلبياً على  
حرامه . فقمم ولكنها القناعة المرة . وقال :

أهملنى قوم وكم فاضيل يود أن ينظرنى فى المنام  
ثم يقول :

قنمت والقنع يمسز الفتى لما رأيت الحرص ذل الكرام  
على أننا نعود إلى تسائلنا ونقول : هل كان ابن الوردي

خاملاً ؟ وهل نال من وراء خموله ما يشتهى من الخمول الحق ؟  
كلا . . . فإن بعد عن الناس ببذنه فقد قرب إليهم بفكره ،

وإن اعتزلهم ببجسه فقد عاشهم بشعره . وقال من وراء انجماه  
عنهم ما يكون كامناً في نفسه من أمل الشهرة والذويع . وإن

حرم الرزق والجاء . وقد مات ابن الوردي ولا يزال شعره يردد ،  
وذكره يحدد ، وعاش ومات في النابيين الخالدين . وكان من

الشعراء القلائل الذين تركوا للناس مبادئ ومذاهب عاشوا بها  
ودعوا إليها .

محمود رزق سليم

مدرس بكلية اللغة العربية

(عاش) توفي ابن الوردي في عام ٧٤٩ هـ .

محمود رزق سليم

يقدم قريبا

من وراء المنظار

الكفاح . وارتضى عيش المزلة على المخالطة . ونشد السلويين  
كعبه ودفاتره ، والمزاه بين أقلامه ومجاهره ، وراح يرقل في  
نوب من الخمول ، كأنه يرقل في ثوب من النعيم . وأمن في  
خموله واستمره حتى أصبح حبيباً إليه أثيراً عنده . راضياً  
ببأسه . قال :

قالوا تركت الحكم قلت تركته واعتضت عن خضر القضا بالياس  
قتل الأنام على المطام نفوسهم فصفت دنياهم بألف مداس  
وقد استقر في نفسه أن الخمول هو نصيبه الحق من الحياة .

لأنه قل أن يجتمع الحظ الحسن مع الذكاء . ويندر أن يلتئم الجاه  
الواسع مع البرور في العلم والأدب . فذكاه المرء محسوب عليه .

وخير لطلب الجاه أن يدع سبيل العلم والأدب ويخيلها لثيره . قال :

لا تحمصن على فضل ولا أدب فقد يضر الفتى علم وتحقيق  
ولا تعد من المقال بينهم فإن كل قليل العقل مرزوق

والحظ أنفع من خط تزوقه فما يفيد قليل الحظ تزويق  
والعلم يحسب من رزق الفتى وله بكل متع في الفضل تضيق  
أهل الفضائل والآداب قد كسدوا

والجاهلون فقد قامت لهم سوق  
والناس أعداء من سارت فضائله وإن تعمق قالوا عنه زنديق

وقد بدا لنا من هذه الأبيات عقيدته في الحظ ، وقد ردها  
في أبيات متعددة فقال منها :

لى نفس تقيية لم يسها غير حظى وذا بغير اختياري  
جامع الحظ والذكاء تخليل يصب الجح بين ماء ونار

غير أن هذه العقيدة لا يساجها الرضا بل السخط ، ولا  
يخالطها الاطمئنان بل المزاراة والحسرة . ألا تراه يقول :

إن لت حظى فلا يتلنى فإن لوى له يمحس  
للضد رزق بلا حساب ولى حساب بغير رزق

ويقول :

شتان يا ابن فلان تماسى وسمودك  
أنا يدود نرى وأنت قرز دودك

وما دام أمر الحظ كذلك فلا داعى للسى وليس المرء  
ناعماً في خموله ، لا عمل ولا نصب ، ولا كد ولا أدب ، ولا سبها  
بعد أن كافح ونافح ، ودرج وجرج ، فلم يظفر من وراء ذلك

بشيء . قال :